أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد وأثره على المجتمع

إعداد الأستاذ الدكتور

حسن إبراهيم يحيى

مدير عام بهيئة كبار العلماء

قسم اللغويات، كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر

أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد وأثره على المجتمع

حسن إبراهيم يحيى محمد
قسم اللغويَّات، كلية اللغة العربيَّة، جامعة الأزهر
مدير عام بهيئة كبار العلماء
سوهاج، جمهوريَّة مصر العربيَّة
البريد الإلكتروني: drhassan871@gmail.com

ملخص البحث:

تهدف الدراسة إلى صياغة نسق معرفي أخلاقي إسلامي يحافظ على المكتسبات الماديَّة، ويضمن استقرار الأُمَّة، ويحقق أمنها ورقيها ونهضتها، وانبنت هذه الدراسة على عدة محاور أساسيَّة تمثلت في تحديد مفهوم الأخلاق كما صوره القرآن الكريم، والأخلاق بين النسبية والثبات، باعتباره نقطة مفصلية لبناء منظومة الأخلاق التي تحقق الوعي الرشيد، وأسس بناء الوعي الأخلاقي، وكان من أهم هذه الأسس تربية النشء، وتربية الضمير، والإلزام الخلقي، والرقابة الاجتماعيَّة، والقدوة، والتعافي من الهزيمة النفسيَّة، أثر الوعي الأخلاقي في المجتمع، وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي والتحليلي، وبُنيت الدراسة على مميزات الأخلاق في الإسلام، ومنها أنها غير قابلة للنسبيَّة، بينما تجدها في كثير من النظم الاجتماعيَّة والنظريَّات الفلسفيَّة خاضعة للنسبيَّة، ومرد ذلك إلى أنَّ الأخلاق في الإسلام ارتبطت بالعقيدة، وانبنت على الشريعة، وهذه الخاصيَّة التي انفرد بها الإسلام صبغت الأخلاق فيه بصبغة الثبات، وكان من أهم نتائج هذه الدراسة أنَّ الأخلاق في الإسلام وثيقة الصلة بالعقيدة والشريعة، ولا تنفك عن واحدة منهما بحال من الأحوال،

وأنَّها تمتاز بالشموليَّة، وتنطلق من الفرد لتنفع الجماعة، وترتد من الجماعة لصالح الفرد، وتغطي الحوائج النفسيَّة والاجتماعيَّة، وتلبي النزعات الجسدية، والميول الروحيَّة، والأخلاق في الإسلام لا تعرف النسبيَّة، وإنما هي منظومة ثابتة يلتزم بها المسلم سواء بدا له منها تحقيق المصلحة أم لا، بخلاف النظريَّات الفلسفية التي تكون الأخلاق فيها نسبيَّة، مما يهدد استقرار المجتمع، وتصيبه بالقلق والحيرة والاضطراب، والأخلاق في الإسلام تنمو مع الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وتصبح بعد ذلك منهج حياة؛ لذلك ركزت مصادر الإسلام على غرسها في الأطفال، وملاحظة تطبيقاتها في تصرفاتهم اليوميَّة، وأنَّ مسألة الضمير أو الوازع الديني من أهم مقوِّمات الأخلاق؛ إذ إنها تمثل المحرك الوجداني للالتزام بالأخلاق.

الكلمات المفتاحيَّة: نسبيَّة الأخلاق، تربية النشء، الإلزام، الوازع الديني، القدوة، العواطف والوجدان، الرقابة الاجتماعيَّة، المجتمع.

The Foundation of Building Sound Ethical Awareness and its Impact on Society

Hassan Ibrahim Yahia Muhammad.

Department of linguistics, Faculty of Arabic, Al-Azhar University, Sohag, Egypt

Email: drhassan871@gmail.com

Abstract:

The study aims to formulate an Islamic cognitive ethical framework that preserves material gains, ensures the stability of the nation, and achieves its security, prosperity, and progress. This study is based on several fundamental themes, which involve defining the concept of ethics as portrayed in the Quran. Among the most important foundations of building ethical awareness are upbringing of the young, cultivation of conscience, moral obligation, social supervision, role modeling, recovery from psychological defeat, and the impact of ethical awareness on society. The study, which relies on the descriptive and analytical approach, is structured around the distinctive features of ethics in Islam. One such feature is its non-relativity, in contrast to many social systems and philosophical theories which are subject to relativity. This can be attributed to the fact that ethics in Islam interrelate with belief and are based on Sharia. One of the most significant findings of this study is that ethics in Islam are closely linked to belief and Sharia and are inseparable from either under any circumstances. They encompass psychological and social needs, fulfill the physical impulses,

and spiritual inclinations. Ethics of Islam are instilled in Muslims since their childhood, eventually becoming a way of life. Thus, the issue of conscience or religious obligation is one of the most essential components of ethics, as it represents the emotional drive to adhere to ethics.

Keywords: ethical relativism - upbringing of the young – obligation - religious drive - role model - emotions and conscience - social supervision – society

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد...

فالأخلاق سرٌّ من أسرار بقاء الأُمَّة، وأصل أصيل في نهضتها ورقيِّها، ولا يخفى على المشتغلين بالشأن العام أثر الأخلاق الإيجابي حال تواجدها في مجتمع ما، وخطورة غيابها عن مجتمع ما، الأمر الذي يستلزم دراسات متعددة ومتتالية لمعالجة الظواهر الاجتماعيَّة والنفسيَّة على أساس الأخلاق، وقد أحسنت كلية الدراسات الإسلاميَّة والعربيَّة للبنات اختيار عنوان مؤتمرها الخامس «الأخلاق وآليات بناء الوعي الرشيد»؛ إذ إنَّه من الضروري أن ترتبط الأخلاق بكلِّ مكونات الحياة، ولن يتحقق ذلك إلَّا من خلال بناء وعي رشيد يتعامل مع الأخلاق على أنها ركيزة اجتماعيَّة تضمن استقرار المجتمع، وتحقق أمنه، وليس مجرد مادة ترفيهيَّة يتغنى بها الفلاسفة والأدباء والمصلحون.

وإيمانًا مني بأهميَّة الموضوع؛ ونظرًا لما يحقِّقه من أهداف عليا وثيقة الصلة بالعمران النفسي والعمران الواقعي، وباعتباره أساس كلِّ نهضة علميَّة أو اجتماعيِّة أو اقتصاديَّة رأيت المشاركة بورقة بحثيَّة بعنوان: «أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد وأثره على المجتمع».

وتدور محاور هذه الورقة–التي أسأل الله فيها التوفيق والسداد، وأبرأ إليه من الحول والقوة–حول المفاهيم الآتية:

- مفهوم الأخلاق كما صوره القرآن الكريم والسنة النبويَّة.
- الأخلاق بين الثبات والنسبيَّة وأثر ذلك على المجتمع.
- أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد.
- أثر الوعي الأخلاقي على المجتمع.

والهدف من البحث صياغة نسق معرفي أخلاقي إسلامي يحافظ على المكتسبات الماديَّة، ويضمن استقرار الأُمَّة، ويحقق أمنها ورقيها ونهضتها.

تمهيـــــد

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

فقد جاء الإسلام يحمل منهجًا متكاملًا للحياة، يصبغها بصبغته الربانيَّة، ويوجِّهها وجهته الأخلاقية، ويضع لها الإطار والحدود التي تضبط سيرها، فتقيها الانحراف عن جادة الطريق أو السقوط في مفترق الطرقات، وإحدى دعائم هذا المنهج الرباني «الأخلاق»؛ إذ إنَّ الإسلام في تصور معتقديه عقيدة وشريعة وأخلاق، ولا تنفك واحدة منها عن الأخرى بأي حال من الأحوال.

وتأكيدًا لدور الأخلاق في حياة الأُمَّة الإسلاميَّة وصف القرآن الكريم سيدنا محمد ﷺ باعتباره القدوة والأسوة للمسلمين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم:٨]، وجعل النبي ﷺ عنوان رسالته التي اختطها في جبين الدنيا الأخلاق، فقال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»(١)، ولما تمثله الأخلاق في الإسلام ارتبط بها الأجر في الآخرة، فقال ﷺ: « إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي فِي الْآخِرَةِ مَسَاوِئُكُمْ أَخْلَاقًا، الثَّرْثَارُونَ، الْمُتَفَيْهِقُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ»(٢).

وانطلاقًا من هذه النصوص، وفي ضوئها نؤكِّد أنَّ الأخلاق لازمة ضروريَّة للعمران، وأنَّ العمران الذي ينفك عن الأخلاق عمران زائل لا

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في الأدب المفرد، بَابُ حُسْنِ الْخُلُقِ، حديث رقم(٢٧٣)، الأدب المفرد، للبخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلاميَّة – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ – ١٩٨٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ، حديث رقم (١٧٧٣٢)، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط –عادل مرشد، وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ –٢٠٠١ م، ٢٦٧/٢٩.

محالة، والأُمَّة التي لا أخلاق لها أُمَّة كالأنعام بل هي أضل، وهذا ما ترجمه أمير الشعراء أحمد شوقي في قوله:

وَإِنَّما الأُمَمُ الأَخلاقُ ما بَقِيَت ... فَإِن تَوَلَّت مَضَوا في إِثرِها قُدُما (١)

مفهوم الأخلاق كما صوره القرآن الكريم والسنة النبويَّة:

أحاول تحت هذا العنوان أن أوجز القول عن مفهوم الأخلاق كما صوره القرآن الكريم والسنة النبويَّة، وبادئ ذي بدء أعرِّف بالأخلاق؛ إذ إن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فالأخلاق: جمع خلق، وهو هيئةٌ في النَّفسِ راسخة عنها تصْدر الأفعال بسهولة ويُسْرٍ من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كانت الْهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سُمِّيَتْ تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيَتِ الهيئة الَّتي هي المصدر خُلُقًا سَيِّئًا؛ وإنَّما قلنا إنَّها هيئة راسخة لأنَّ من يصدر منه بذل المال على النُّدُورِ لحاجةٍ عارضة لا يقال خُلُقُهُ السَّخاءُ، ما لم يثبُتُ ذلك في نفسه ثُبُوت رسوخ؛ وإنَّما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رَوِيَّةٍ لأن من تَكلَّف بذل المال أو السُّكوتَ عند الغضب بجهد ورَوِيَّةٍ لا يقال خُلُقُهُ السخاء، والحِلم ملكة راسخة في النَّفس، عنها تصدر الأفعال بسهولة من غير حاجة إلى فكر ورَوِيَّةٍ(٢).

وهذا المفهوم هو المستوعب لجنبات علم الخلاق، ومصدره القرآن الكريم، والسنة النبويَّة، فمن يتدبر القرآن والسنة يجد أن القصد الذي ترمي إليه تربية القرآن هو أن يحرِّر الإنسان من أهوائه وشهواته، وأن تَقْوَى نفسه بالأخلاق القويمة، وأن يزود عقله بالمعرفة، ثم أن يعمل بهذه النفس المحرَّرة القوية، وهذا العقل القويم في معترك الحياة؛ مبتغيًا الخير لنفسه وللناس

(١) ديوان شوقي، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، ج١ص٢٥٩.

(٢) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة بيروت، ٥٣/٣، والجواهر النقيَّة في الأخلاق الدينيَّ، للشيخ علي محفوظ، هيئة كبار العلماء ٢٠٢٤م، ص ٤٣.

كافة[١]، وهذا هو عين الوعي الأخلاقي الذي ننشد بناءه، وثمرته: إنسان يحمل عمران النفس بالأخلاق، وعمران الواقع والاشتباك مع الحياة لتحقيق الخير، وخير شاهد على هذا التصور قوله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْمَلِكُمْ إِيمَانًا؟ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، الْمُوَطَّؤُونَ أَكْنَافًا، الَّذِينَ يَأْلَفُونَ وَيُؤْلَفُونَ»[٢]، فهو تصوير جمع بين الإيمان المحرِّر للإنسان من شهواته، ثم هو تقوية للنفس بما تحمله من أخلاق، ثم اشتباك مع الحياة لتحقيق عمرانها بالألفة والمحبة.

ومن ثمَّ فإنَّ الطريق الذي يجب أن يسلكه طالب الكمال، ويعتني به المربي أتمَّ اعتناءهو تعويد النفس الخلق الفاضل الذي يراد اكتسابه، حتى يرسخ فيها رسوخ الملكات التي تتملك النفوس، وتصدر عنها الأفعال بلا تكلف ولا عناء، وإلَّا فهو تصورات ومعلومات لأخلاق ووجدانات، فإنَّ الكمال لا يتم للإنسان إلا إذا انفعلت نفسه به، وتكرر ذلك الانفعال المرة بعد المرة حتى تعتاده، فلا تنفعل به، وحينئذ يصير كيفًا راسخًا فيها؛ فيلتحق بالغرائز الأصلية فتصدر عنه الآثار الحميدة بغاية السهولة على نحو ما تصدر عنه الأفعال الطبيعية[٣].

---

(١) أمهات الأخلاق في القرآن الكريم، مجموعة مقالات، د/ عبد الوهاب عزام، مطبوعات: مشيخة الأزهر الإدارة المركزيَّة للشئون الفنيَّة، ص٢٨.

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، حديث رقم(٧٧٦٥)، ١٠/٤٤٠.

(٣) سبيل السعادة في فلسفة الإخلاق الدينيَّة وأسرار الشريعة الإسلاميَّة، للشيخ يوسف الدجوي، عضو هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى، هيئة كبار العلماء، ٢٠١٩م، ص ٩٨.

الأخلاق بين الثبات والنسبيَّة
وأثر ذلك على المجتمع

ذكر الباحثون في الأخلاق أنَّ أصولها ترجع الى ثلاث صفات: الحكمة، والعفة والشجاعة، وعللوا ذلك بأنَّ النفس الإنسانيَّة أوتيت ثلاث قوى: وهي قوة التمييز، وقوة جلب النافع، وقوة دفع الضار، وبعبارة أخرى: العلم، والشهوة، والغضب، وكلٌّ واحدة منها عرضة للضعف والنقص والإفراط ومجاوزة الحد وقابلة للتوسط والاعتدال؛ ولا تكون واحدة منها فضيلة إلَّا إذا لزمت حدّ الاعتدال فلم يعترها النقص والضعف والتفريط، ولم تجاوز الحد إلى جانب الزيادة والإفراط؛ فمتى لزمت حدَّ الاعتدال كانت حميدة الأثر جميلة العقبى، وقد جعلوا لها أسماء بحسب حالاتها فسموا قوة التمييز عند اعتدالها حكمة، وإذا ضعفت وقصرت كانت غباوة وجهالة، وإن جاوزت حد الاعتدال كانت خبثًا ومكرًا؛ وسموا قوة الشهوة عند اعتدالها عفة، فإن قصرت وضعفت كانت جمودًا وبلادة، فإن جاوزت الحد كانت شرهًا، وكذلك قوة الغضب تعتدل؛ فتكون الشجاعة، فإن نقصت كانت جبنًا، وإذا زادت كانت تهورًا[1].

ومما امتاز به الإسلام في نسقه الأخلاقي أنَّ مادة الأخلاق فيه غير قابلة للنسبيَّة، بينما تجدها في كثير من النظم الاجتماعيَّة والنظريَّات الفلسفيَّة خاضعة للنسبيَّة، ومرد ذلك إلى أنَّ الأخلاق في الإسلام ارتبطت بالعقيدة، وانبنت على الشريعة، وهذه الخاصيَّة التي انفرد بها الإسلام صبغت الأخلاق فيه بصبغة الثبات، فالمسلم مطالب بالصدق سواء حقق له الصدق مصلحة أو لم يحقق، ومطالب بالأمانة بمفهومها الواسع سواء حققت له الأمانة مصلحة مباشرة أم لم تحقق، وهذا المعيار ينسحب على كلِّ ما يمكن أن يندرج تحت الأخلاق.

وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول فيه:« عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ،

(١) الشيخ إبراهيم الجبالي، محاسن الأخلاق في الشريعة الإسلاميَّة، مجلة الأزهر، الجزء السابع، المجلد الأول، ١٣٤٩هـ، ص ٥٣٣.

وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»(١).

وثمَّة أمر آخر أكَّد على ثبات الأخلاق في الإسلام، وهو أنَّ الإسلام ليس دينًا وضعيًّا يتطور مع الزمن كما تتطور الأديان الوضعيَّة والفلسفات، وإنما هو دين سماوي، يدعو الناس إلى أن يتطوروا هم ليتلاءموا معه وليلتقوا به، ولما كان الإنسان هو الإنسان في كلِّ زمان ومكان، فإنَّ القيم الثابتة متصلة بهذا الكيان، مستجيبة لحاجاته وحامية له(٢).

وعندي أنَّ من أقوى الأسباب لتدهور الأخلاق- إن لم يكن أقواها جميعًا- ضعف الوازع الديني، والوازع الديني الذي أريده هو الزاجر الناهي، الذي ينبعث من أعماق النفس البشريَّة؛ فيمتلك عنانها، ويسيطر عليها، ويتحكم فيها، ويسير على خطة معلومة وطريق مرسوم، وهو الذي يوجد في المرء المحاسبة والمراقبة والخوف والخشية والرجاء والحياء، وكثيرًا ما يسميه الباحثون بالضمير الديني، ولو دققنا النظر لوجدنا أن ذلك الوازع هو خير حامل للإنسان على أن يكون مثلًا من أمثلة الأخلاق الكريمة، وهو الذي يحول بينه وبين طباع السوء(٣)، وهذا الوازع الديني أو الضمير الديني لا يتحقق إلا من خلال الإيمان بالله، ومن ثمَّ فأي منظومة أخلاقيَّة لا يكون الإسلام قوامها، وتكون تعاليم الشريعة منطلقاتها، فهي أخلاق نسبيَّة زائفة.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ قُبْحِ الْكَذِبِ وَحُسْنِ الصِّدْقِ وَفَضْلِهِ، ٢٠١٣/٤، حديث رقم(٢٦٠٧)، ط/ دار إحياء التراث العربي.

(٢) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، أنور الجندي، الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الإسلاميَّة، السنة الأربعون، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٣٣.

(٣) الأخلاق والوازع الديني، للأستاذ أحمد الشرباصي، مجلة الأزهر الجزء التاسع، المجلد السابع والعشرون، رمضان ١٣٧٥هـ/ أبريل ١٩٥٦م، ص ٩٨٦.

أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد

تعد القيم في كلِّ مجتمع معايير للسلوك الإنساني، والمجتمع المتوازن هو ذلك المجتمع الذي ينتشر فيه الوعي بالقيم، ومن ثَمَّ الالتزام بها، ويرتبط بازدياد الوعي بالقيم والإحساس بها مفاهيم التقدم والتفاؤل والنظام والترابط، والأمر الذي لا جدال فيه أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش في مجتمع دون قيم تحكم سلوكه على المستوى الفردي والاجتماعي(١).

ولا شكَّ أنَّ عمليَّة بناء وعي أخلاقي رشيد ليست بالعمليَّة السهلة، التي يمكن أن يقوم بها أي إنسان، فهي عمليَّة غاية في الخطورة؛ لأنَّ الذي يقوم بها لابد أن يوازن بين عدة أمور، منها الأخلاق النظريَّة، والأخلاق العمليَّة، ومنها مراعاة القانون الأخلاقي في تجاوباته وملائمته لطباع النفس البشريَّة، ومنها الاستقراء الجيد لمنهج القرآن الكريم في تأصيله لمنظومة الأخلاق والربط بينها وبين العقيدة والشريعة؛ ولكي يتحقق بناء وعي أخلاقي مثمر فلا بدَّ من النعاصر التالية:

التنشئة:

لا يمكننا ونحن نتحدث عن سبل بناء الوعي الأخلاقي أن نغفل دور التنشئة السليمة الصحيحة، فلا يخفى على أحد أنَّ عقل الأطفال كاللوحة الفارغة، جاهزة لاستقبال ما يطبع عليها، فإن طبعت عليها صورة الخير ووسائل تحقيقه اكتمل بناؤها المعرفي على هذا النسق الأخلاقي، وإذا طبعت عليها صورة الشر وتركت لخصالها الدنيئة اكتمل بناؤها على هذا النسق.

ومن ثمّ فلا مشاحة في أنَّ النفس الناطقة متى روضت على خير الوسائل بلغت أشرف المقاصد، وأنبل الغايات، وقد قال علماء الأخلاق: إنَّ مما لا

---

(١) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، هدية مجلة الأزهر لشهر رمضان، ١٤٣٦هـ، ص١٤٤.

يقبل جدلًا أن من اتفق له في كن الصبا وخدر الغرارة أن يُرَبَّى على أدب الشريعة البيضاء، ويُؤخذ بشرائطها وأحكامها حتى يتعود وتصبح له ملكة وسليقة، ثم ينظر بعد ذلك في كتب الأخلاق الإسلاميَّة لتتأكد تلك الأخلاق والآداب والمحاسن في نفسه بالبراهين والأقيسة، ثم ينظر في علم الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان بما زاول من عمليَّات ومارس من أرقام، ثم يتدرج رويدًا رويدًا حتى يبلغ أسمى المراتب، كان هو السعيد الكامل(١).

وشواهد القرآن الكريم والسنة النبويَّة خير دليل على صحة القول بأنَّ التنشئة في الصغر على معطيات القرآن الكريم والسنة النبويَّة أساس راسخ لبناء منظومة وعي أخلاقي، وما جاء في سورة لقمان مع ابنه من مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ. وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾[لقمان: ١٣-١٩]، يؤكِّد الترابط الوثيق بين الأخلاق والعقيدة والشريعة من ناحية، ويؤكِّد ضرورة تعهد الإطفال بالتنشئة على الفضائل منذ الصغر.

---

(١) فلسفة الأخلاق وصلتها بالنفس الناطقة، عباس طه، مجلة الأزهر، الجزء الأول، المجلد السابع، المحرم ١٣٥٥هـ، ص ١٤٩.

وهذا المنهج طبَّقه سيدنا رسول الله ﷺ في توجيهه لسيدنا عبد الله بن عباس، وكان غلامًا يركب خلف سيدنا رسول الله على ناقته، فقال ﷺ:« يَا غُلامُ، إِنِّي مُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»(١).

وهذه الأصول الأخلاقيِّة هي الضمانة الوحيد لتحقيق الأمن المجتمعي والاستقرار؛ لأنَّها غرست في نفوس الصبية وكبرت معهم، فصارت بالنسبة لهم منهج حياة، لا يتصور معه غدر ولا كذب ولاخيانة، والمجتمع المتعافي من هذه الخصال الذميمة هو المجتمع المتماسك القوي القادر على مواجهة التحديات.

ومن ثمَّ فإنَّ من أسس بناء الوعي الأخلاقي أن نربي نشأنا عل الشعور بعظمة الله، ثم لا نفتأ نذكر لهم آيات نبوة سيدنا محمد ﷺ حتى يطمئنوا إلى صحتها، ولا ندع أن نقرِّر لهم أصول الشريعة على وجه يجعلهم على بصيرة من حكمتها، وهذا ما يربي فيهم الغيرة المهذبة، ويعدَّهم لأن يكونوا للحقائق والمصالح أنصارًا(٢)؛ إذ إنَّ الوعي الأخلاقي إذا لم يرتبط بالعقيدة والشريعة، ويؤسس بنيانه عليهما فلا قيمة له، وتصبح المعايير الأخلاقيَّة نسبيَّة لا ثبات لها، وبالتالي تتحول الأخلاق لانتهازيَّة بحتة، لا تحقق مصلحة، ولا تحافظ على وطن، ولا تصمد في وجه التحديات والمحن التي يمر بها الوطن.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث سيدنا عبد الله بن عباس، ٤/٤١٠، حديث رقم (٢٦٦٩).

(٢) مختارات من تراث الشيخ محمد الخضر حسين، شيخ الأزهر الأسبق، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص٥٥-٥٦.

تربية الضمير:

وثاني أسس بناء الوعي الأخلاقي تربية الضمير، الذي يربط الإنسان بالرقيب الذي لا ينام وبالعالم الذي لا يجهل، وبالقوي الذي تؤمن الفطر بقوته، والذي يتلقى الإنسان نظم حياته عن ذلك الرقيب العالم القوي الباهر، فتأخذ من نفسه ما يأخذه منها مصدرها، ويمنحها نفس الاحترام الذي يمنحه لمصدرها، ويتوخى في جميع أفعاله ما يرضي ذلك المصدر القوي القاهر؛ فيكون خيرًا كلُّه، فلا يماري، ولا يخادع، ولا يغش، ولا يخون، ولا يقصِّر في حقٍّ، ولا يتقاعس عن واجب؛ فيسلم في الحياة وتسلم له الحياة(١).

وغني عن القول إنَّ أيَّ أمَّة لا ضمير فيها يحكم تصرفات الناس، ويوجههم الوجهة الأخلاقيَّة السليمة أمَّة إلى زوال، وهذا الضمير الذي ننشده ونبحث عنه في سُلَّم الوعي الأخلاقي هو الضمير المرتبط بالفطرة النقيَّة التي فطر الله الناس عليها، وهوما يجب على الدعاة والمصلحين العمل ليل نهار على إيقاظه، وجعله حيًّا في الناس، فليس من المتصور أن نعيِّن على كلِّ فرد من أفراد الأُمَّة شرطيًّا يراقب تصرفاتهم، لكن من المعقول أن يكون لدى كلِّ فرد من أفراد الأُمَّة ضميرًا يقود صاحبه إلى معالي الأمور، ويجنبه مواطن الزلل.

وهذا الضمير هو المحرِّك لمنظومة الأخلاق؛ ولذلك نعى القرآن الكريم وشنع على قوم ماتت ضمائرهم، وراقبوا الناس ولم يراقبوا الله الذي خلقهم فقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا. يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[النساء: ١٠٧– ١٠٨]،

(١) من توجيهات الإسلام، للشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة التاسعة ٢٠١٠م، ص ١٦.

وفي الحديث الشريف حذَّر النبي من أناس إذا خلو بمحارم الله انتهكوها: « قَالَ لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِى يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَال جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، صِفْهُمْ لَنَا جَلِّهِمْ لَنَا أَنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»[1].

فغاية الكمال الإنساني التي ينشدها الإسلام هي تربية الضمير في النفوس على زاد من التقوى، لما له من هيمنة يقظة تتصل بالإنسان في كلِّ أوقاته، تدفع من نفسه الهواجس، وتقاوم نزعات الغواية، وتوجِّه إلى الخير، ويكون به الإنسان إنساناً موضوعيًّا لا إنساناً شكليًّا[2].

وخير تصوير لصاحب الضمير الحي قول رسول الله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[3]، وتربية الضمير على هذا النحو يقودنا إلى الدعامة الثالثة، وهي:

الإلـــــزام:

وثالث الدعائم التي يُبنى عليها الوعي الأخلاقي مسألة الإلزام، فأي مذهب أخلاقي جدير بهذا الاسم لا بدَّ له أن يستند على فكرة الإلزام؛ لأنها الأساس الجوهري، والمحور الذي يدور حوله النظام الأخلاقي كله، وغياب فكرة

---

(١) مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٤م، ٣٩٣/١، حديث رقم(٦٨٠).

(٢) الإسلام والمجتمع، للشيخ عبد اللطيف السبكي، عضو هيئة كبار العلماء، مجلة الأزهر، الجزء الخامس، العدد السابع والعشرون، جمادى الأولى ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ص ٥٢٨.

(٣) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كِتَابُ الإِيمَانِ، بَابُ سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الإِيمَانِ، وَالإِسْلاَمِ، وَالإِحْسَانِ، وَعِلْمِ السَّاعَةِ ١٩/١، حديث رقم(٥٠).

الإلزام يؤدي إلى انعدام روح الحكمة العمليَّة ومادتها؛ لأنَّه إذا انعدم الإلزام انتفت المسؤوليَّة، وبانتفاء المسئوليَّة لا تحقق العدالة، بل يسود الاضطراب والفوضى (١).

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال: ما أسس الإلزام الخلقي؟ ولن يعيينا البحث طويلًا في الإجابة عن هذا السؤال، ففي النفس البشريَّة خوف من قوي جبار قاهر، إليه المصير، وهذا يعود بنا لما سبق التنبيه عليه من ثبات النسق الأخلاقي، وارتباطه بالعقيدة والشريعة، مع إضافة بُعْدِ آخر وهو رجاء الرحمة في الآخرة، وخوف العذاب، وهو المعني الذي تشير إليه الآية الكريمة في قوله تعالى:﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَاوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَاوَى﴾ [النازعات: ٣٧-٤١]، فشعور الخوف، وشعور الرجاء من أسس الإلزام الخلقي، وهذان الشعوران يجب التركيز عليهما في إقناع الناس بضرورة البناء الأخلاقي؛ لأنَّه لا يوجد إنسان مجرد عن هذين الشعورين بحال من الأحوال.

وثمَّة أساس آخر من أسس الإلزام الخلقي، وهو الإحساس بالخير والشر، حيث نبهنا القرآن الكريم إلى أنَّ النفس الإنسانيَّة تلقت في تكوينها الأول الإحساس بالخير والشر، وهما ركيزة البناء الأخلاقي، قال تعالى:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس: ٧-١٠]، وأنها مزودة مع ملكة البيان والحواس الخارجيَّة ببصيرة أخلاقيَّة﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة: ١٣-١٤]، ومن ذلك يتضح لنا أنَّ النظام الأخلاقي في

(١) دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، تقديم د/ محمود عزب، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص ٤٣.

التصور الإسلامي –والذي ينبغي أن يحكم علاقات الناس بعضهم ببعض– يعتمد على أمرين جوهريين؛ هما: الباعث الداخلي أو الضمير، والوازع الديني المتمثل في الإيمان، وهما يتعاونان معًا في سبيل هداية الإنسان وإرشاده إلى طريق الخير والرشاد، ويمثل كلاهما مصدر الإلزام الخلقي في الإسلام(١).

تقديم القدوة:

أعتقد أنَّه من المناسب الآن– بعد الحديث عن تربية النشء، وتربية الضمير وما يلزم ذلك من مسألة الإلزام– أن نتحدث عن تقديم القدوة، فلا ينكر أحد قوة القدوة في الوسط الأخلاقي على التأثير في المحيط الاجتماعي، ومن فضل الله علينا أنَّ القدوة التي اختارها الله– عز وجل – لنا هو الرجل الكامل، والنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ، فهو قدوة جميع الناس، نقتدي به شابًّا، ونقتدي به زوجًا، ونقتدي به والدًا، ونقتدي به قائدًا، ونقتدي به صاحبًا... واقتداؤنا به جزء أصيل من عقيدتنا، فهوﷺ إشراق إلهي على الإنسانيَّة، يقوِّمها في فلكها الأخلاقي، ويجذبها إلى الكمال في نظام هو بعينه صورة لقانون الجاذبية في الكواكب، وما الشهادة للنبوة إلا أن تكون في نفس النبي أبلغ نفوس قومه، حتى لهو في طباعه وشمائله طبيعة قائمة وحدها، كأنها الوضع النفساني الدقيق الذي ينصب لتصحيح الوضع المغلوط للبشريَّة في عالم المادة وتنازع البقاء، وكأنَّ الحقيقة السامية في هذا النبي تنادي الناس: أن قابلوا على هذا الأصل، وصححوا ما اعترى أنفسكم من غلط الحياة وتحريف الإنسانيَّة.

فهو قد بعث بالدين أعمالًا مفصلة على النفس أدق تفصيل وأوفاه بمصلحتها، فهو يعطي الحياة في كلِّ عصر عقلها العملي الثابت المتجدد

(١) الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، للأستاذ الدكتور حمدي زقزوق، ص٧٣.

المتغير، تنظم به أحوال الطبيعة على قصد وهدى، وهذه هي حقيقة الإسلام في أخص معانيه، لا يغني عنه في ذلك دين آخر، ولا يؤدي تأديته في هذه الحاجة أدب ولا علم ولا فلسفة، كأنما هو نبع في الأرض لمعاني النور، بإزاء الشمس نبع النور في السماء(١)، وصدق الله إذ يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب:٢١]، ومن بعده صحابته رضوان الله عليهم، والتابعين، والعلماء العاملين، فتاريخنا الإسلامي حافل بالقدوات على كلِّ الأصعدة.

لكن ما يجب التنبيه عليه والتنبه إليه أننا في معركتنا مع الغزو الثقافي الذي لا يريد بنا خيرًا تستبدل قدواتنا بقدوات زائفة تافهة، وتُرسَّخ لها صورة حية من خلال أعمال هابطة، تقتل المروءة، وتئد العفاف، وتنشر الفحش، وتنغمس في الملذات، ولا تقدم خيرًا قط، ويُتْرك لها أبناؤنا وفتياتنا بنبهرون بها، فبعد أن كانت قدوة بناتنا الأخلاقيَّة، فاطمة بنت سيدنا رسول الله، وأسماء بنت إبي بكر الصديق، وورفيدة الأسلميَّة، وغيرهن كثير ممن يضيق المقام عن ذكرهن، صارت قدوة بناتنا بائعات الهوى اللاتي لايرددن يد لامس!!

وبعد أن كانت قدوة شبابنا مصعب بن عمير، وأسامة بن زيد، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن عمر.. صارت قدوتهم اللاعب فلان والمطرب فلان، وذلك ما ينذر بالخلل الأخلاقي الذي يجب تداركه، وإعادة صياغة المنظومة الأخلاقيَّة وفق قدوات حقيقيَّة، نصون من خلالها أرضًا، وندفع بها عن عرض، ونحمي بها وطنًا، وهذا واجب المدارس والمعاهد والجامعات والقائمين عليها.

---

(١) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، ٢/ ٩، دار الكتب العلميَّة، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

الرقابة الاجتماعيَّة:

ومن أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد الضغط الاجتماعي، أو الرقابة الاجتماعيَّة، وهي صورة يكون المجتمع مراقبًا لتصرفاته، وضابطًا لأي خلل أخلاقي يصيبه، ولا يتحقق هذا البعد-الضغط الاجتماعي- إلا إذا شعر المجتمع أنَّه في سفينة واحدة، وأنَّ أي عطب يصيب هذه السفينة سيؤثر سلبًا على المجتمع كلِّه، الأمر الذي يقتضي مراقبة دقيقة لكلِّ تصرف يصدر من أي فرد أو فصيل أو جماعة داخل المجتمع، ليس هذا فحسب، بل إنَّ المجتمع ليس المطلوب منه مجرد المراقبة وفقط، بل اتخاذ الإجراءات اللازمة حال العبث بمنظومة الأخلاق، وفي ضوء هذه المعطيات نستطيع أن نفهم قول سيدنا رسول الله ﷺ: « مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا)[1].

وهذا الحديث بمنطوقه ومفهومه يؤكِّد أنَّ الرقابة الاجتماعيَّة لبنة أساسيَّة في بناء الوعي الأخلاقي، وأنَّه بانعدامها تغرق السفينة كلها بمن أصاب أعلاها، ومن أصاب أسفلها، ومن خلال هذا التوجيه النبوي ندرك ما حل ببني إسرائيل يوم أن عطَّلوا الرقابة الاجتماعيَّة، وقد وصفهم القرآن بقوله تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ. كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾[المائدة ٧٨-٨٠]، وعلى وجه آخر يعطينا هذا المفهوم-مفهوم

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، كِتَاب الشَّرِكَةِ، باب: هَلْ يُقْرَعُ فِي القِسْمَةِ وَالِاسْتِهَامِ فِيهِ، ١٣٩/٢، حديث رقم (٢٤٩٣).

الرقابة الاجتماعيَّة-سبب خيريَّة هذه الأمة التي مثَّل فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر رابطة اجتماعيَّة تضمن استقرارها، وتحقق أمنها، فقال رب العالمين في شأنها: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران:١١٠].

التجرد عن الهوى:

ومن أسس بناء وعي أخلاقي التجرد عن الهوى، والتخلي عن التقليد الأعمى، والقرآن حين يخاطب الإنسان بوعده أو وعيده، وحينما يمتدح الخيرين، ويقدح في الأشرار، فإنَّه يقصد- أولًا- توجيه المرء إلى الاعتدال، ويقصد فوق هذا اقتلاع بواعث الشر من نفسه، وتأصيل روح الخير في طباعه، وأن يكون الإنسان على نفسه بصيرة، فلا يأخذه نفاق، ولا يجنح إلى رياء، ولا يكون أنانيًّا ولا جبَّارًا عصيًّا، وانظر إليه حين يقول﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ففي هذا دفع إلى التجرد من عصبيَّة القرابة، وتوجيه إلى العدل في ذاته، ولو كان ضد القريب من اللحم والدم، وهذه وظيفة الضمير، وانظر إليه كذلك في قوله تعالى﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[المائدة: ٨]، ففي هذا كلِّه توجيه للسمو، وعدم التأثر بالخصومات، وإلى الترفع عن الحزازات، والحكم بالعدل ولو كان في جانب العدو(١).

والتجرد عن الهوى من الخصال التي لا ترسخ إلا في نفس نبتت في بيئة صالحة، وارتضعت من ثدي التربية الصحيحة لبنًا خالصًا، والجماعة التي

---

(١) الإسلام والمجتمع، للشيخ عبد اللطيف السبكي، عضو هيئة كبار العلماء، مجلة الأزهر، الجزء الخامس، العدد السابع والعشرون، جمادى الأولى ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ص ٥٢٨.

تفقد هذا الخلق تفقد جانبًا عظيمًا من أسباب السعادة، ويداخلها الوهن بعد الوهن، حتى تتفرق أيدي سبا[١].

التعافي من الهزيمة النفسيَّة:

ومن أسس البناء الأخلاقي التعافي من آثار الهزيمة النفسيَّة، والتبعيَّة للغير، ولا أكون مغاليًّا عندما أقول إننا بشكل أو بآخر نعيش أزمة الهزيمة النفسيَّة، تلك الهزيمة التي ورثناها من تبعات الماضي، وتخلفنا عن ركب الحضارة، وصدمات الاستعمار الأجنبي التي غربتنا عن ثقافتنا وقيمنا وأخلاقنا، بل وأفهمنا أنَّ سرَّ تخلفنا هو تمسكنا بديننا وقيمنا وأخلاقنا، فأصبح فريق من بني جلدتنا ينادي بالتحرر من كلِّ القيم الإسلاميَّة، وما يرتبط بها من أخلاق، ظنًّا منهم أنَّ هذا من عوامل التحضر والمدنيَّة!!

وإذا كنا نريد أن نبني وعيًا أخلاقيًّا فلابد أن نتحرر من الهزيمة النفسيَّة التي خلفها فينا الاستعمار بأفكاره وأيدولجياته المختلفة، التي قصدت إلى محاولة تغريب العرب والمسلمين عن ثقافتهم، وتفريغ الفكر الإسلامي من مقوماته وقيمه وذاتيته، والعمل على إسقاط الفكر الإسلامي، وتزييف المقومات الإسلاميَّة، وإشاعة الشبهات حولها، حتى استباح النفوس والعقول بالمغريات التي يطرحها بريق الحضارة تحت الأضواء وحول النار، نار الشهوات والملذات والمتع والمغريات مع سريان مذاهب الإباحيَّة والإلحاد، وتشبع الثقافات بها، وترويج القصص الجنسيَّة لها، ومن شأن الإغراء بالصورة العارية والكلمة المكشوفة أن تقدم في هذا المجال ما لايدع للنفس العربيَّة الإسلاميَّة، ولا للعقل الإسلامي مجالًا للبحث عن قيم الأخلاق والإيمان والتوحيد[٢].

---

(١) مختارات من تراث صاحب الفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، ص ٣٣.

(٢) مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي/ الأزهر الشريف، مجمع البحوث الإسلاميَّة، الكتاب الثاني١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٢.

وإذا تقرر ذلك فنحن- أفرادًا ومؤسسات ومعاهد وجامعات- مطالبون بالتعافي من هذه الهزيمة النفسيَّة، وإعادة استخلاص مشروعنا الحضاري القائم على القيم والأخلاق من منابع ثقافتنا الإسلاميَّة- القرآن الكريم والسنة النبويَّة- وغرسها في العقل الجمعي للأمة بآليات معاصرة، ومعنى ذلك أن نعمِّق الإيمان بالخُلُق القرآني في مواجهة التغريب الثقافي الذي فُرض علينا، وأن نجعل منه أمرًا شائعًا في أوساط الأمة، وأن لا نمل التأكيد عليه حتى يستقر في القلوب والعقول والنفوس، وتنطلق به الألسنة والأقلام ليصيح روحًا تسري في الأمة كلها؛ حتى تحدث حالة الاستعداد والنهوض والإصرار على تمكين الأخلاق القرآنيَّة والنبويَّة، وهنا تبرز شخصيتنا، ونتحرر من التبعيَّة والهزيمة النفسيِّة، ونضع ملاح مشروعنا الحضاري القائم على الأخلاق، ونخرج من دائرة الإمعة التي حذرنا منها سيدنا رسول الله ﷺ بقوله:« لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً، تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا، وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ، إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا»(١).

ضبط الآداب العامَّة:

أخلاق الأمم والجماعات تتطبع وتتكيف على منهاج الآداب العامة الفاشية فيها، فإذا كانت الآداب العامة لأمَّة أو لجماعة مصادر لانبعاث غرائز الشهوات ونموها، فإنَّ مجاري تفكيرها تتجه إلى هذا الأفق النازل من آفاق النفس الإنسانيَّة، وتنحصر أعمالها وغاياتها ومقاصدها وأهدافها في محيط هذا الأفق المتدني(٢).

وهذا الأفق إذا سيطر على تفكير أمة وأعمالها فإنَّ فهمها يقصر عن إدراك المعاني السامية الرحيبة للوجود الإنساني، وتدور منازعها وميولها

---

(١) سنن الترمذي، بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِحْسَانِ وَالعَفْوِ، ٢٦٤/١٤، حديث رقم(٢٠٠٧).
(٢) إنما الأمم الأخلاق، لفضيلة الشيخ محمد محمد الأودن، مقال بمجلة الأزهر، المجلد الثامن عشر، ٥٧٦.

حول محيط وجودها الحاضر ولذَّاتها المنقضية الفانية، ولا شكَّ أنَّ الآداب العامة التي تطفح بها الساحة اليوم لا تبني منظومة أخلاقيَّة تساعد المجتمع على النهوض، لما فيها من إسفاف، واغتيال واضح للقيم، وتعدٍّ سافر على القدوات الاجتماعيَّة، الأمر الذي يتطلب من المثقفين والدعاة والمصلحين التدخل لتقديم آداب تزكي الجانب الأخلاقي في المجتمع.

وأدبنا الإسلامي غني بموارده وروافده الروحيَّة التي تنتصر للفضيلة، وتمحق الرذيلة، وتحصن النفس من غوائل الشهوات، وتحافظ على عفة المجتمع وطهارته، فتعيد للفن دوره في تعميق صلة الإنسان بالخالق وبالكون وبإخوانه في الإنسانيَّة، وفي كشف حقائقه الفكريَّة والنفسيَّة لمزيد من الهدى والصلاح، وتزيل عنه عوامل التبعيَّة والتخلف في خدمة تجار الهوى وبائعي الأوهام، وهذه الروحيَّة ستعيد للأخلاق عرشها المسلوب، وتقيمها على قواعد ثابتة تعطي للحرام حرمته، وللحلال قيمته ومتعته[1]، وتمنع عنها ما ران عليها من امتهان واحتقار، وتحميها من المطاردة والاضطهاد باسم الفن والإبداع المبتذل الرخيص.

تعقيب

هذا، وقبل ذلك كلِّه لابدَّ أن نقنع الناس بأنَّ البناء الأخلاقي لا يقلُّ أهمية عن البناء العقدي، والبناء التشريعي، وأنَّ قوام الانتفاع بالعقيدة والشريعة هو التمسك بالأخلاق، فتاريخ الرسالات الإلهيَّة في جميع مراحلها يدل على أنَّ السعادة التي تضمنتها العقيدة والشريعة لابدَّ في الحصول عليها من حسن الخلق، وأنَّ الإيمان الذي يرجع فقط إلى مجرد العلم بوحدانيَّة الله، والعبادة التي ترجع فقط إلى الصور والأشكال، والنظم التي ترجع فقط إلى مواد القوانين والفقه المحفوظ في الصدور، وأنَّ المتعة بالحياة التي ترجع فقط إلى

(١) حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، عضو هيئة كبار العلماء، ص ٨١، هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م.

إصابة لذائذها، وأنَّ نظرة الإنسان إلى الكون التي ترجع فقط إلى مظاهره العامة- دل تاريخ الرسالات وإرشاداتها- على أنَّ انقطاع هذه الشعب في جوهرها عن شعبة الأخلاق مما يهدم في النفوس وفي الحياة الأثر الذي ترتبه الحكمة الإلهيَّة في الإنسان على التكليف بهذه الشعب والإرشاد إلى التمسك بها(١).

ولا أدل على هذا التعانق الوثيق بين العقيدة، والعبادة، والنظم، والأخلاق من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧]، قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ أُمَّهَاتِ الْأَحْكَامِ، لِأَنَّهَا تَضَمَّنَتْ سِتَّ عَشْرَةَ قَاعِدَةً: الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَالنَّشْرَ وَالْحَشْرَ وَالْمِيزَانَ وَالصِّرَاطَ وَالْحَوْضَ وَالشَّفَاعَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ، وَالْمَلَائِكَةَ وَالْكُتُبَ الْمُنَزَّلَةَ وَأَنَّهَا حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَالنَّبِيِّينَ، وَإِنْفَاقَ الْمَالِ فِيمَا يَعِنُّ مِنَ الْوَاجِبِ وَالْمَنْدُوبِ، وَإِيصَالَ الْقَرَابَةِ وَتَرْكَ قَطْعِهِمْ، وَتَفَقُّدَ الْيَتِيمِ وَعَدَمَ إِهْمَالِهِ وَالْمَسَاكِينِ كَذَلِكَ، وَمُرَاعَاةَ ابْنِ السَّبِيلِ- قِيلَ الْمُنْقَطِعُ بِهِ، وَقِيلَ: الضَّيْفُ- وَالسُّؤَالَ وَفَكَّ الرِّقَابِ، وَالْمُحَافَظَةَ عَلَى الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ وَالصَّبْرَ فِي الشَّدَائِدِ(٢).

وإذا اقتنع الناس بهذا الترابط والتماسك بين شعب الإسلام سهل عليهم التمسك بالأخلاق، ولو زدنا على ذلك أن فهَّمنا الناس أنَّ الأخلاق هي الحافظة لكلِّ المكتسبات الماديَّة والمنجزات الحضاريَّة- إذ لا يتصور بقاء

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، للشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الواحدة والعشرون ٢٠١٥م، ص ٤٠٠.
(٢) تفسير القرطبي، ٢٤١/٢.

مكتسبات ماديَّة، ومنجزات حضاريَّة في ظل غياب الأخلاق، مهما كانت القوانين صارمة وحازمة فإنها لا تغني عن الأخلاق، فضلًا عن استمراريَّة العطاء الحضاري، وشيوع الأمن النفسي والمجتمعي- فإننا نكون قدمنا للناس دليلًا ملموسًا على ضرورة إقامة منظومة الوعي الأخلاقي في المجتمع.

الأثر الاجتماعي للأخلاق

أي مجتمع بشري ركيزته الأسرة، فهي تمثل فيه المنبع والمصب الذي يجمع ويلخص كافة النظم المحوريَّة للمجتمع، فالأسرة تشارك في تشكيل المنظومة الاجتماعيَّة، وتتأثر بها، وإذا تمَّ بناء الأسرة بناءً سليمًا على أسس قرآنيَّة ونبويَّة كانت مشاركتها في صنع المنظومة الأخلاقيَّة مشاركة بناءة، وكان تأثيرها إيجابيًّا[١]، وحسبنا في ذلك التوجيه النبوي في بناء الأسرة الذي يقول فيه النبي ﷺ:«إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عريض»[٢]، فالتركيز كله على الدين والخلق كأساسين لبناء المجتمع.

وبناءً على ذلك نستطيع أن نقرر أنَّ الوعي الأخلاقي له تأثيره الاجتماعي، فالإسلام منح الإنسان باعتباره فردًا شخصيَّة مستقلة، وجعله في الوقت نفسه لبنة في بناء المجتمع، وباعتبار الأول أثبت له حقَّ الملكيَّة لماله ودمه، وحق الهيمنة على نفسه وولده، ومنحه في هذه الدائرة حقَّ التصرف بما يكون مصلحة له وسبيلًا مقوِّمًا لحياته دون مساس بحق الغير، وباعتبار الثاني: أوجب عليه للمجتمع في نفسه أن يرشد الضال، ويعين الضعيف، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويساهم بكلِّ ما يستطيع في مرافق الحياة ووسائل رفاهيَّتها، وأوجب عليه حقًّا في ماله، بالبذل والإنفاق في سبيل الله بما يفضل عن حاجته[٣]، وهذان الاعتباران- اعتبار الاستقلاليَّة في نفسه

---

(١) التغيرات المعاصرة وأثرها في العلاقات الاجتماعيَّة، إعداد اللجنة العلميَّة بمجمع البحوث الإسلاميَّة، ص٥.

(٢) أخرجه البيهقي في سننه، أَبْوَابُ النِّكَاحِ، بَابُ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ فَزَوِّجُوهُ، ٣٨٧/٣، حديث رقم (١٠٨٥)، تحقيق/ أحمد محمد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ -١٩٧٥م.

(٣) أحسن ما قرأت عن الإسلام، مقالات ودراسات لكبار العلماء والأدباء، انتقاها صلاح الدين المنجِّد، مشيخة الأزهر، مكتب إحياء التراث الإسلامي، سلسلة كتب الثقافة الإسلاميَّة، رقم(١٤)، ص٣٥.

والمشاركة في المجتمع- وما يترتب عليهما من آثار لا يمكن تحصيلها إلا من خلال بناء وعي متكامل بالأخلاق، مستمد من الإيمان بالله تعالى، وما يقتضيه هذا الإيمان، إذ كيف نطالب عديم الأخلاق باحترام حريَّة الآخرين، وعدم الاعتداء عليها، وكيف نطالب عديم الأخلاق أن يعين ضعيفًا، أو أن يواسي بماله فقيرًا؟ وهذا ينسحب على كلِّ مقومات الحياة المرتبطة بالاجتماع الإنساني.

وعندما نبحث أثر الأخلاق في المجتمع فإننا ننطلق من قاعدة أثبتتها تجارب الأمم السابقة، وأكَّدها القرآن الكريم، وهى قاعدة تتعلق بقانون الأخلاق، فقانون الأخلاق يضبط حركة المجتمع، ولهذا القانون نوعان؛ قانون أخلاقي عامٌ(١)، يمثل القضايا الكلية التي ترسِّخ القيم في المجتمع من مثل قوله تعالى﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [سورة المائدة:١٠٠]، وقوله تعالى ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة:١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[الأنبياء:١٠٥]، فهذه الآيات تمثل القانون العام للأخلاق.

والقانون الخاص، وهي قوانين تتعلق بأخلاق خاصة يعضِّد بعضها بعضًا، ويأخذ بعضها بحُجز بعض، كالعدل والفضل، والرحمة والرأفة، والأمانة والوفاء، والصبر والإحسان، والصدق واللين... وغير ذلك من الأخلاق التي لا يستقيم بدونها مجتمع، ولا تنهض بمعزل عنها أمَّة، فضلًا عن أن تبني حضارة أو تحافظ على وطن أو تصون عرضًا.

ويظهر جليًّا أثر الأخلاق على المجتمع في مثل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا

(١) أخلاقنا، أ.د/ محمد ربيع الجوهري، ص ٢٥.

فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[الأعراف: ٩٦]، وقوله تعالى﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[النحل: ١١٢- ١١٣]، فهاتان الآيتان تؤكِّدان العلاقة الوطيدة بين حال المجتمع وأثر الأخلاق فيه.

- وفي ميدان العواطف والوجدان نجد أنَّ النسق الأخلاقي يحافظ على مشاعر الناس، ويبث فيهم الطمأنينة، وينتزع منهم الغل والحقد والحسد، ولعل خير ما يعكس هذه المعاني قوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١١١-١١٢]، وحديث سيدنا رسول الله ﷺ : «المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»(١)، وهذه المعاني التي تضمنتها الآية والحديث تربط بين الوعي الأخلاقي والجانب العاطفي في المجتمع، فيجتث منه السخرية التي توغر الصدور، والغيبة التي تنهش عرض المجتمع، والتجسس الذي يتتبع العورات..وكلها أمور لها علاقة بالوجدان والمشاعر، وسبيل تحقيقها تنمية الوعي الأخلاقي.

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كِتَاب المَظَالِمِ وَالغَصْبِ، بَابٌ: لاَ يَظْلِمُ المُسْلِمُ المُسْلِمَ وَلاَ يُسْلِمُهُ،١٢٨/٢، حديث رقم(٢٤٤٢).

- ومن أثر الأخلاق على المجتمع أنها تعصمه من المآثم التي ينحدر بها إلى درجة الحيوانيَّة؛ إذ إنَّ الأخلاق الكريمة تمنع صاحبها من الوقوع في المآثم، والضمائر الحيَّة تحاسب أصحابها على ما يأتون من أعمال، فإذا ما همَّ الإنسان بسيئة من السيئات أو خطيئة من الخطايا وقفت الأخلاق والضمائر سدًّا منيعًا أمام الشهوات والنزوات، وحائلًا حصينًا دون الموبقات والمنكرات، ولو أنَّ الناس تمسكوا بالدين وآدابه، والشريعة وما اشتملت عليه من أخلاق لسما الناس بأنفسهم عن مواقع الزلل ومهاوي الرذيلة(١).

وإذا كنا تحدثنا فيما سبق عن تربية الضمير باعتباره أساسًا من أسس بناء الوعي الأخلاقي، فإننا نؤكِّد هنا على العلاقة بين المجتمع السوي والضمير الحي، ذلك أن إدراك المعاني النبيلة التي تحكم العلاقات الإنسانيَّة في التصور الإسلامي لن تتحقق بصورة صحيحة إلا إذا تمت المصالحة بين الإنسان ونفسه من ناحية، وبينه وبين خالقه من ناحية أخرى، فإذا تمت هذه المصالحة انعكس ذلك بصورة إيجابيَّة على علاقته بالآخرين من أناس وحيوانات وأشياء، وبمعنى آخر: إذا كان الضمير متيقظًا، والإيمان عميقًا؛ فإنَّ ثمرة ذلك تكون حسن الصلة بالآخرين؛ لأنَّ الإسلام يطلب من المسلم أن يتوافق مع عالمه الذي يعيش فيه، والمجتمع السوي مجتمع يعيش أفراده في توافق وانسجام، وهذا أمر يمكن تحقيقه عن طريق تربية الضمير والتوعية الصحيحة بقيم الدين والأخلاق، وبتضافر الوازع الديني والوازع الداخلي يكون بناء الشخصيَّة السويَّة للفرد بناءً متماسكًا يجعل المجتمع كالبنيان المرصرص، يشد بعضه بعضًا(٢).

---

(١) الأخلاق، للشيخ إبراهيم أبو سعدة، مجلة الأزهر، الجزء العاشر، المجلد السابع والعشرون، شوال ١٣٧٥هـ/ مايو ١٩٥٦م، ص ١١٣٣.

(٢) الإنسان والقيم في التصور الإنساني، للأستاذ الدكتور حمدي زقزوق، ص ٧٣.

وبناءً على ما سبق نستطيع أن نفهم حديث سيدنا رسول الله ﷺ في قوله: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(١)، حيث قرن بين الحياء والإيمان؛ إذ هما أمران متلازمان في عقيدة الإسلام، وإذا افتقد المرء الحياء، بمعنى إذا غفل الضمير فإنَّ ذلك يعني اختفاء الحاكم أو الرقيب الداخلي لدى الإنسان، وهذا معناه الانفلات من إطار النظام الأخلاقي، وتفسير هذا الانفلات في قول سيدنا رسول الله ﷺ:« إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»(٢)، ولاشكَّ أنَّ غياب الضمير هتك لستر المجتمع، وانتهاك حرماته، الأمر الذي يوضح الارتباط الوثيق بين تربية الضمير وسلامة المجتمع وأمنه واستقراره.

- ومن الناحية الاقتصاديَّة التي يمثل المال فيها الدعامة الأساسيَّة للمجتمع نجد الإسلام سنَّ من التشريعات ما يضمن توافر حد الكفاية لجميع أفراد المجتمع، وفي سبيل ذلك حرَّم الربا بأنواعه، وعدَّه كبيرة من الكبائر، وذلك لتنافيه مع الأخلاق الإسلاميَّة وقواعد التكافل الاجتماعي(٣)، ومثل هذه التشريعات تمثل الترابط الوثيق بين الأخلاق والشريعة من ناحية، وتبين دور الأخلاق في تحقيق الأمن المجتمعي من ناحية أخرى فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي، فتحقيق حد الكفاية للفقراء والمعوزين نابع من إيمان الفرد بالله، وتيقنه أن المال مال الله وأنه مستخلف فيه، وبهذه الاعتبارات

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كِتَابُ الْإِيمَانَ، بَابُ شُعَبِ الْإِيمَانِ، ٦٣/١، حديث رقم(٣٥).

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، بَابُ خَلْقِ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَذُرِّيَّتِهِ، بَابُ حَدِيثِ الغَارِ،١٧٧/٤، حديث رقم (٣٤٨٤).

(٣) تصحيح المفاهيم، بقلم مجوعة العلماء، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٨م، ص٥٥.

يكون المجتمع مجتمعًا إنسانيًّا لا إكراه فيه، ومجتمعًا أخلاقيًّا تدفعه الإرادات الذاتية وحدها، ومجتمعًا متحابًّا متوادًّا تسوده الطمأنينة ويشيع فيه الرضى النفسي(١).

وهذه المعايير التي ترجع في أصلها لعمليَّة اقتصاديَّة ما كانت لتتحقق لولا وجود الوعي الأخلاقي، ثم إنَّ الوعي الأخلاقي عندما حقَّق حد الكفاية للفقراء والمعوزين ومَنْ على شاكلتهم إنما حقَّقه على أساس الكرامة الإنسانيَّة، لا على أساس الاستعباد والقهر، أو المن والأذى، وذلك ملمح أخلاقي بحت نبَّه إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ. قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٢-٢٦٣].

فالدين الذي يقرر هذا، ويقرر أنَّ من أركانه وعباداته المفروضة-التي يكفر منكرها، ويفسق تاركها-الإنفاق في سبيل الله بما يسد حاجة الفقير، وبما يقيم المصالح الجماعيَّة ليس معقولًا ولا مقبولًا أن يكون دينًا لا علاقة له ببناء المجتمع وشؤونه، وإذا رغب الناس في التعبير الحق في هذا الشأن فليكن: الإسلام هو دين المجتمع، ودين الشئون الاجتماعيَّة(٢).

(١) الإسلام فطرة الله، الأستاذ الدكتور محمد البهي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ، ٢٠١٨م، ١٢٢.

(٢) منهج القرآن في بناء المجتمع، للشيخ محمود شلتوت، هدية مجلة الأزهر رمضان ١٤٣٦هـ، ص١١٩.

خاتمة البحث

حاولت في هذا البحث بناء نسق أخلاقي ينطلق من العقيدة، ويرتبط بالشريعة، ويحقق مصلحة الفرد والجماعة، ويلبي حاجات الإنسان الماديَّة والمعنويَّة، والجسديَّة والروحيَّة، ويضمن استقرار المجتمع، ويحقق أمنه، وتتجلى فيه صفات الود والرحمة والألفة، وكانت أبرز نتائجه على التحو التالي:

١- الأخلاق في الإسلام وثيقة الصلة بالعقيدة والشريعة، ولا تنفك عن واحدة منهما بحال من الأحوال.

٢- الأخلاق في الإسلام تمتاز بالشموليَّة، وتنطلق من الفرد لتنفع الجماعة، وترتد من الجماعة لصالح الفرد، وتغطي الحوائج النفسيَّة والاجتماعيَّة، وتلبي النزعات الجسدية، والميول الروحيَّة.

٣- الأخلاق في الإسلام لا تعرف النسبيَّة، وإنما هي منظومة ثابتة يلتزم بها المسلم سواء بدا له منها تحقيق المصلحة أم لا، بخلاف النظريَّات الفلسفية التي تكون الأخلاق فيها نسبيَّة، مما يهدد استقرار المجتمع، وتصيبه بالقلق والحيرة والاضطراب.

٤- الأخلاق في الإسلام تنمو مع الأطفال منذ نعومة أظفارهم، وتصبح بعد ذلك منهج حياة؛ لذلك ركزت مصادر الإسلام على غرسها في الأطفال، وملاحظة تطبيقاتها في تصرفاتهم اليوميَّة.

٥- مسألة الضمير أو الوازع الديني من أهم مقوِّمات الأخلاق؛ إذ إنها تمثل المحرك الوجداني للالتزام بالأخلاق، ولذلك إذا تعطل الضمير أو الوازع الديني اضطربت حركة الحياة اجتماعيًّا، وفكريًّا، واقتصاديًّا.

٦- مصادر الإلزام الخلقي نابعة من ذات الإنسان يتحكم فيها شعور الخوف والرجاء، وترتبط فيها الدنيا بالآخرة، مما يترتب عليه سلامة المجتمع

وتمكينه من مواصلة رحلته في أمن واستقرار، وهما شعوران يجب أن يركز عليهما علماء الأخلاق في تعزيز منظومة الأخلاق في نفوس الناس؛ لأنه لا يوجد إنسان متحرر من الخوف والرجاء.

٧- الرقابة الاجتماعيَّة، ورصد التصرفات الشاذة وغير الأخلاقيَّة وسيلة فعَّالة لضمان أمن المجتمع واستقراره، وكان سبب لعنة الأمم السابقة أنهم عطلوا مسألة الرقابة الاجتماعيَّة المتمثلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٨- التجرد عن الهوى والإنصاف من الأخلاق اللازمة لسلامة المجتمع وتحقيق أمنه؛ ولذلك أفرد لهما القرآن الكريم نصيبًا من الوصاية بهما، حتى في معاملة الأعداء.

٩- التعافي من الهزيمة النفسيَّة التي خلفتها موروثات الماضي والانبهار بالاستعمار، وعملت على تغذيتها أقلام مهزومة نفسيًّا ضرورة لازمة لإعادة النسق الأخلاق المميِّز لهذه الأُمَّة، ولن يتحقق ذلك إلا بالعودة الصادقة الجادة لطرح الرؤية الأخلاقيَّة الإسلاميَّة كسبيل أوحد للتخلص من حالة التدني الأخلاقي، مع الاعتقاد الجازم بأنَّ ديننا غني بموارده الأخلاقيَّة، وقادر على انتشالنا من هذا التدني إن أحسنا قراءة معطياته وتجاوبنا معها أفرادًا وجماعات.

١٠- الآداب العامَّة وما ساعد على انتشارها من فضائيَّات ووسائل تواصل حديثة لا ترقى لمستوى أخلاقي يليق بنا، الأمر الذي يستلزم صياغة آداب عامة تُعرِّف الإنسان بخالقة، وتصله بالكون، وتحقِّق له عمران النفس وعمران الواقع، وتقتلع منه بواعث الشر والرذيلة والفاحشة، وتتعالى عن مخاطبة الغرائز البهيميَّة، وتفسح المجال لاستقراء المعاني الرحبة الساميَّة، وهذا يستلزم جهودًا متضافرة من الدعاة والمصلحين وصُنَّاع الثقافة والمؤسسات المعنيَّة، كلٌّ فيما أقامه الله.

١١- الأُمَّة التي تتجرد من أخلاقها، وتتعرى من أنسانيتها أُمَّة زائلة لا تصلح للبقاء، ولا تصلح لقيادة ركب الإنسانيَّة، وكلُّ حضارة تتجرد من القيم والأخلاق فهي إلى زوال، وتلك سنة الله في خلقه، وما عاد وثمود وقوم فرعون منا ببعيد.

التوصيات:

١- إنشاء وحدة أخلاقيَّة بكلِّ مدرسة مهمتها مراقبة تصرفات التلاميذ والطلاب وتقويمها، مع تدعيم الطلاب بما يناسبهم من موادَّ أخلاقيَّة تنمو معهم حتى تصير منهج حياة.

٢- صياغة مناهجنا العلميَّة والتربويَّة وفق رؤية أخلاقيَّة إسلاميَّة ترسخ لمفاهيم الحب والتسامع والاحترام والغيرة على الدين والولاء للوطن واحترام المقدسات وتقدير القدوات في جميع الميادين المحترمة.

٣- تكثيف الجهود الدعويَّة من المؤسسات المعنيَّة لاجتثاث الرذائل والانتصار للفضائل، ووضع البرامج المناسبة لذلك، وتوسيع دائرة الاستهداف للطبقات الاجتماعيَّة المتعددة.

٤- مخاطبة الشباب بمنطق الحوار الذي يقنع ولا يقمع، لتعزيز منظومة الأخلاق في نفوسهم، وذلك من خلال برامج حواريَّة، ومسابقات ثقافيَّة، وبحوث علميَّة وتعميم ذلك بخطة عمليَّة في جامعاتنا ومعاهدنا وتجمعات شبابنا.

٥- تقديم القدوة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والدينيَّة والعلميَّة مع التأكيد على إبراز الجوانب الأخلاقيَّة في كلِّ قدوة، والعزوف عن القدوات الهدَّامة التي كانت سببًا في ميوعة شبابنا، وانحلال أخلاقهم.

٦- صياغة ميثاق شرف إعلاميٍّ مع المؤسسات المعنيَّة بالثقافة والإعلام لترسيخ منظومة الأخلاق، والإقلاع فورًا عن كلِّ الأعمال البذيئة

الرخيصة التي تدخل بيوتنا ويشاهدها أطفالنا وشبابنا وفتياتنا، وإيجاد وسائل ردع مناسبة لحجب هذه الأعمال ومعقابة مروجِّيها، فالأمر جد خطير، ولا يحتمل المداهنة، أو غض الطرف، إنَّه مستقبلنا ومستقبل وطننا.

هذا وآخر دعوانا إن الحمد لله ربِّ العالمين

والله أسأل التوفيق والسداد لمؤتمركم الكريم

د/ حسن إبراهيم يحيى

مدير عام بهيئة كبار العلماء

المراجع

- أحسن ما قرأت عن الإسلام، مقالات ودراسات لكبار العلماء والأدباء، انتقاها صلاح الدين المنجِّد، مشيخة الأزهر، مكتب إحياء التراث الإسلامي، سلسلة كتب الثقافة الإسلاميَّة، رقم(١٤).
- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة بيروت.
- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، دار الشروق، الطبعة الواحدة والعشرون ٢٠١٥م
- الإسلام فطرة الله، الأستاذ الدكتور محمد البهي، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ١٤٣٩هـ.
- أمهات الأخلاق في القرآن الكريم، مجموعة مقالات، د/ عبد الوهاب عزام/ مشيخة الأزهر الإدارة المركزيّة للشئون الفنيَّة.
- الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، أ.د/ محمود حمدي زقزوق، هدية مجلة الأزهر لشهر رمضان، ١٤٣٦هـ.
- التغيرات المعاصرة وأثرها في العلاقات الاجتماعيَّة، إعداد اللجنة العلميَّة بمجمع البحوث الإسلاميَّة.
- تفسير القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- الجواهر النقيَّة في الأخلاق الدينيَّة، للشيخ علي محفوظ، هيئة كبار العلماء ٢٠٢٤م.

- حاجة العصر إلى حياة روحيَّة، للأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة، عضو هيئة كبار العلماء، هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى ١٤٤٤هـ/ ٢٠٢٣م
- دستور الأخلاق في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، ترجمة محمد عبد العظيم علي، تقديم د/ محمود عزب، دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- ديوان أحمد شوقي، أحمد شوقي بك (المتوفى: ١٩٣٢م)، دار صادر، بيروت، د.ت.
- سبيل السعادة في فلسفة الإخلاق الدينيَّة وأسرار الشريعة الإسلاميَّة، للشيخ يوسف الدجوي، عضو هيئة كبار العلماء، الطبعة الأولى، هيئة كبار العلماء، ٢٠١٩م.
- سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي، الهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.
- صحيح البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول اللهﷺ وسننه وأيامه، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

- صحيح مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- مختارات من تراث صاحب الفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين، مجمع البحوث الإسلاميَّة، السلسلة العلميَّة، السنة التاسعة والأربعون، ٢٠١٨م.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، (المتوفى: ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
- مسند الشاميين، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ – ١٩٨٤م.
- مشكلات الفكر المعاصر في ضوء الإسلام، للأستاذ أنور الجندي/ الأزهر الشريف، مجمع البحوث الإسلاميَّة، الكتاب الثاني ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلميَّة، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

المقالات:

- الأخلاق والوازع الديني، للأستاذ أحمد الشرباصي، مجلة الأزهر الجزء التاسع، المجلد السابع والعشرون، رمضان ١٣٧٥هـ/ أبريل ١٩٥٦م.
- الأخلاق، للشيخ إبراهيم أبو سعدة، مجلة الأزهر، الجزء العاشر، المجلد السابع والعشرون، شوال ١٣٧٥هـ/ مايو ١٩٥٦م.
- الإسلام والمجتمع، للشيخ عبد اللطيف السبكي، عضو هيئة كبار العلماء، مجلة الأزهر، الجزء الخامس، العدد السابع والعشرون، جمادى الأولى ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

- إنما الأمم الأخلاق، لفضيلة الشيخ محمد محمد الأودن، مجلة الأزهر، المجلد الثامن عشر، ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م.
- فلسفة الأخلاق وصلتها بالنفس الناطقة، عباس طه، مجلة الأزهر، الجزء الأول، المجلد السابع، المحرم ١٣٥٥هـ.
- محاسن الأخلاق في الشريعة الإسلاميّة، الشيخ إبراهيم الجبالي، مجلة الأزهر، الجزء السابع، المجلد الأول، ١٣٤٩هـ.

الفهـــرس

م		الصفحـــــــــة
١	ملخص البحث	
٢	المقدمة	
٣	تمهيد	
٤	مفهوم الأخلاق كما صوره القرآن الكريم والسنة النبويَّة	
٥	الأخلاق بين الثبات والنسبيَّة وأثر ذلك على المجتمع	
٦	أسس بناء الوعي الأخلاقي الرشيد	
٧	تعقيب	
٨	الأثر الاجتماعي للأخلاق	
٩	خاتمة البحث	
١٠	التوصيات	
١١	المراجع	
١٢	الفهرس	